توظيف النحو والإعراب في الخطاب التفسيري
تفسير الشعراوي أنموذجاً

الدكتور: زعفان حاج

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

يعتمد الشيخ الشعراوي في تفسيره للآيات القرآنية وشرحه لمفرداتها على ثقافته النحوية العالية، إذ يعد ذلك أحد الأسس التي بنى عليها تفسيره، فالإعراب أحد دعائم الشعراوي في تفسيره، فإنك لا تكاد تمر بآية من آيات القرآن إلا وتلحظ مدى عناية الشيخ بذكر أوجه الإعراب والنحو فيها.

الكلمات المفتاحية: الشعراوي؛ النحو؛ التفسير؛ القرآن ؛المفردة ؛الإعراب ؛ الألفاظ ؛البيان.

The Use of Syntax and Morphology in Shaarawi's Interpretation

Abstract: Sheikh Al-Shaarawi relies his interpretation of the Qur'anic verses and explanation of its vocabulary on his high syntactic culture. This is one of the foundations upon which he based interpretation on. You hardly pass any of the verses of the Koran, but note the extent of the Sheikh's attention to mention the facets of morphology and syntax in them.

Keywords: Al-Shaarawi, syntax, interpretation, Qu'ran, vocabulary, morphology, words, statement

لقد كان اهتمام العلماء القدامى بالإعراب واضحا وجليا، فقد عدوه ضمن الأدوات التي يتسلح بها من ينبري لتفسير الكتاب العزيز، حتى" إن بعض العلماء كان يجعل من إعراب القرآن علما، ويعده من فروع التفسير لا النحو... "[1].

ويقول عبد القاهر الجرجاني[2]: "إن الألفاظ مغلقة على معانيها، حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإن الأغراض كامنة فيها، حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه، حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه"[3].

بيد أن اعتماد النحو والإعراب لابد أن يكون بمقدار، وأن لا يطغى جانب النحو على جانب البيان والتفسير، والكشف عن مراد الله، لدرجة أن يصبح النص القرآني مجرد تمارين

تاريخ تسليم البحث: 24 أوت 2017.

تاريخ قبول البحث: 28 فبراير 2018.

ونماذج تطبيقية للقواعد النحوية، فيفقد التفسير بذلك معناه ومقصده، لأن الإعراب علم آلة ووسيلة فإذا خرجت الوسيلة عن حدها انقلبت إلى غاية في حد ذاتها، ولا ريب أن غرض المفسر هو الكشف عن مراد الله حسب الطاقة لا شرح القواعد الإعرابية وتوضيح المسائل النحوية.

وسأحاول تقديم نماذج تترجم مدى حرص الشعراوي على هذا الجانب في تفسيره، ولعل من أبرز تلك المظاهر ما يلي:

1-إعراب الآيات القرآنية مما يدل على تحكمه في علم النحو:

من ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾[4]، يقول الشعراوي: "وقد يأتي لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط، ويحتمل أن يكون اسما موصولا مثل قولنا: من يذاكر ينجح، بالضم فيهما، و"من"هنا هي اسم موصول، فالذي يذاكر هو من ينجح، وقد نقول: من يذاكر ينجح، بالسكون وهنا "مَنْ" شرطية، وفي الاسم الموصول نجد الجملة تسير على ما هي، أما إذا كانت شرطية، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل، ويقتضي أيضا جوابا للشرط، و"من" تصلح أن تكون اسما موصولا، وتصلح أن تكون أداة شرط، ونتعرف عادة على وضعها مما يأتي بعدها، مثال ذلك قوله الحق: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ**﴾ ونجد "يتبع" هنا عليها سكون الجزم، وهذا يدل على أن "من" شرطية.

وتختلف القراءة لو اعتبرنا "من" اسم موصول، لأن هذا يستدعي ترك الفعل "يشاقق"في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضمة، وكذلك يكون "يتبع" فعلا مضارعا مرفوعا بالضمة، عند ذلك نقول: "**نوليه ما تولى ونصليه**"، ولكن إن اعتبرنا"من" أداة شرط - وهي في هذه الآية شرطية-فلا بد من جزم الفعل فنقرأها"**ومن يشاققْ الرسول من بعد ما تبين له الهدى**"، وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله: (ويتبع) ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله: (نولّه)(ونصله) والجواب وما عطف عليه مجزومان بحذف حرف العلة وهي الياء من آخره﴿**وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرا**﴾، ومعنى "تَولّى" أي قرب، ويقال: فلان وَلِي فلان، أي صار قريبا له، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين، فالحق لا يريده بل ويقربه من غير المؤمنين ويكله إلى أصحاب الكفر"[5].

2-توظيف الإعراب في بيان روعة ودقة الأسلوب القرآني في تلاؤم الألفاظ:

وهذا في الحقيقة من أجل مقاصد النحو في تفسير القرآن فليس توظيف النحو في التفسير مقصورا على سرد أوجه الإعراب وتقليبها، بل المقصود الوصول إلى دقائق النكت ولطائف الإشارات التي وراء الإعراب، وإلا غدا النحو مجرد علم شكلي جاف متوقف على حدود اللفظ غير متطلع إلى المعنى ومعنى المعنى.

ومثال ذلك تفسيره قول الحق سبحانه﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار**﴾[6]، يقول: "وسبحانه حين يورد كلمة في القرآن بموقعها البياني الإعرابي، فهي تؤدي المعنى الذي أراده سبحانه، والمثل هو كلمة "سلام"، فضيف إبراهيم من الملائكة: ﴿**قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ**﴾[7]، وكان القياس يقتضي أن يقول هو "سلاما" ولكنها قضية إيمانية، لذلك قال: ﴿**سَلاَمٌ**﴾ فالسلام هنا لم يأْت منصوبا، بل جاء مرفوعا، لأن السلام للملائكة أمر ثابت لهم، وبذلك حياهم إبراهيم بتحية هي أحسن من التحية التي حيّوه بها، فنحن نسلِّم سلاما، وهو يعني أن نتمنى حدوث الفعل، ولكن إبراهيم عليه السلام فطن إلى أن السلام أمر ثابت لهم، وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة، فَهُم يقولون: ﴿**سَلاَمٌ**﴾ وهي مرفوعة إعرابيا، لأن السلام أمر ثابت مستقر في الجنة، وهم قالوا ذلك، لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك، لا يتغير بتغير الأغيار، كما في أمر الدنيا"[8].

أي أن رفع السلام دال على وقوعه في الجملة الاسمية مبتدأً أو خبرا بحسب التقدير، والجملة الاسمية دالة على الثبات والاستمرار، وأما نصب السلام فدال على وقوعه في الجملة الفعلية مفعولا به منصوبا لفعلٍ، والجملة الفعلية دالة على التغير والتجدد، فكأن التسليم على أهل الدنيا لابد من تجدده لكونهم في دار فساد وآفة ليس فيها سلام دائم ثابت، وهكذا سلم الملائكة على إبراهيم عليه السلام لأنه في الدنيا، وأما التسليم على الملائكة وهو السالمون في كل حين أو على أهل الجنة وهو كذلك، فلابد من الإشارة إلى ثباته واستمراره وذلك برفع السلام، وهكذا سلم إبراهيم عليه السلام على الملائكة وسلمت الملائكة على هل الجنة، وهذه في الحقيقة نكتة نحوية دقيقة تكشف أن الأوضاع النحوية في القرآن ليست آتية على سبيل الاعتباط القواعدي بل مراعية لأسرار كامنة وراء التأليف والنظم، تتحدد وفق ترتيب هو تموقعاته وغير ذلك من أوضاعه.

وفي هذا السياق يتوقف الشعراوي عند الحروف التي تسمى زائدة ويبين أنها إنما جيء بها لنكتة مهمة في التركيب مصححا الغلط الشائع في الإعراب قائلا: "و يقول سبحانه في موقع آخر: ﴿**مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ**﴾، وعندما يقوم النحاة بإعراب "بشير" فهم يقولون: إنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد، إنه التفاف طويل، ولا يوجد حرف زائد، فالإنسان يقول: ما عندي مال، وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يعتد به، وعندما يقول الإنسان: ما عندي من مال، فـ."من" هنا تعني أنه لا يملك أي مالٍ من بداية ما يقال له مال، ولذلك فـ."مِن" هنا ليست زائدة، ولكنها جاءت لمعنى، إذن "ما جاءنا من بشير"، أي: لم يأت لنا بداية من يقال له بشير"[9].

ويضرب لذلك مثالا آخر تتضح منه النكت الخفية لما يسمى بالحروف الزائدة، فيقول: "إن الأصل الذي نشتق منه هو المصدر، ومرة يأتي المصدر ويراد به الفعل، كقول القائل: ضربًا زيدا، أي: اضرب زيدا، ومجيء المصدر هنا قول مقصود به الفعل، وكذلك قوله الحق: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ** ﴾، مادام النقض مصدرا فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل، ومادام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الجائز أن يأتي فعل آخر فيصبح معنى القول: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم ميثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ** ﴾، إذن "ما" تدل هنا على أن المصدر قد جاء نيابة عن فعل، وبقيت "ما" لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف، أو أن "ما" جاءت استفهامية للتعجيب، أي فبأي نقض من ألوان وصور نقضهم للعهد لعناهم؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقض للعهد"[10]، فهذان تخريجان في غاية الجودة للحرف "ما" الذي له في التخريج الأول وظيفة إشعارية بالمحذوف لأنها تتسلط أصالة على الفعل فإذا ما وجدناها متسلطة على المصدر أشعرنا ذلك بأن المصدر هنا قد قُصِدَ به الفعل، وأما في التخريج الثاني فالحرف "ما" يكون استفهاميا بغرض التعجيب من نوع النقض الذي أتوه حتى نالوا ما نالوه من اللعن، وفي كلا التخريجين نكتة ليست في الآخر، ما يفيد في تكثير المعنى، وهو مقصد من مقاصد التفسير، أي أنه كلما وجدنا تفسيرا يكثر المعنى كان أولى من غيره وهكذا.

ومما ينسلك في هذا المجرى من التنبيهات النحوية الدقيقة على المعاني العميقة، والتوقيف على الأغلاط الإعرابية قول الشعراوي في تفسير: "قوله تعالى: ﴿**واسمعوا قَالُواْ سَمِعْنَا وعَصَيْنَا**﴾، لقول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان، هناك قول وفعل وعمل، القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ، والعمل أن يطابق القول الفعل، هم: ﴿**قَالُواْ سَمِعْنَا وعَصَيْنَا**﴾ هم سمعوا ما قاله لهما الله سبحانه وتعالى وعصوه، ولكن "عصينا" على أي شيء معطوفة؟ إنه ليست معطوفة على "سمعنا" ولكنها معطوفة على "قالوا"، قالوا سمعنا في القول وفي الفعل عصينا، وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا في الفعل، فالمشكلة جاءت من عطفنا عصينا على سمعنا، فتحسب أنهم قالوا الكلمتين، لا هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا، والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أي مجرد سماع، ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية"[11]. وهو تنبيه مهم فقد وقع في كثير من كتب إعراب القرآن أن "عصينا" معطوفة على "سمعنا" لكن الشعراوي يبين أنها معطوفة على "قالوا" فهي ليست قولا لهم وإنما فعل خرج مخرج القول فوقع في موضع محاكاة لذلك.

3-توظيف الإعراب في بيان الأحكام الفقهية:

ومعلوم ما للإعراب من دور في استنباط الأحكام الفقهية وفي ترجيح الأقوال بين المذاهب المختلفة، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلاةِ فٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وٱمْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَينِ**﴾[12]، يقول الشيخ الشعراوي: "لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب ﴿**ٱمْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ**﴾ مع أن في الآية أساليب كثيرة، منها أسلوب مجرد عن الغاية، وأسلوب موجود به الغاية، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية؟

وقال الحق: ﴿**ٱمْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ**﴾ ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التي تسبق "رءوسكم" إن "الباء" في اللغة تأتي بمعان كثيرة، قال ابن مالك في الألفية:

بالباء استعن وعَدِّ عَوِّضْ أَلْصِقِ.... ومثل "مع" و"من" و"عن" بها انطقِ

لأن الباء تأتي لمعان كثيرة، للاستعانة مثل: كتبت بالقلم، ولتعدية الفعل اللازم نحو: ذهبت بالمريض إلى الطبيب، وللتعويض مثل: اشتريت القلم بعشرين جنيها، والالتصاق نحو: مررت بخالد، وتأتي بمعنى "مع" مثل: بعتك البيت بأثاثه أي مع أثاثه، وبمعنى "من" مثل: شرب بماء النيل أي من ماء النيل، وبمعنى "عن" مثل قوله تعالى: ﴿**سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ وتأتي أيضا للظرفية نحو: ذهبت إلى فلان بالليل أي في الليل، وتكون السببية نحو: باجتهاد محمد منح الجائزة أي بسبب اجتهاده، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ أي سبح مصاحبا حمد ربك، إن الذي يقول: امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة، فهذا أمر يصلح ويكفي وتسعفه الباء لغة، والمسح يقتضي الإلصاق، والآلة الماسحة هي اليد، وهناك من يقول: نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهي اليد أي مسح مقدار ربع الرأس"[13].

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس، ولو أن الله يريدها على لون واحد لأوضح ما أراد، فإن أراد كل الرأس لقال: "امسحوا رءوسكم" كما قال ﴿**فٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ**﴾ وإن كان يريد غاية محددة، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين"[14]. أي أن الباء يجد فيها كل فقيه تخريجا لمذهب فمن يرى أنها للإلصاق يقول بوجوب مسح كل الرأس، والذي يراها للتبعيض يقول بوجوب مسح بعض الرأس، وهكذا...

ثم يواصل الشعراوي قائلا: "... ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس: "وأرجلكم"، وكان سياق النص يقتضي كسر اللام في "أرجلكم" ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين، وغير معطوفة على "برءوسكم" وهذا يعني أن الرجلين لا تدخلان في حيز المسح، إنما تدخلان في حيز الغسل، ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها، ولم يأت الحق بالممسوح في

جانب والمغسول في جانب، ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدي، وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين: ﴿أَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ والرجل تطلق على القدم، وتطلق على لقدم والساق إلى أصل الفخذ، ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين"[15].

أي أن نصب الأرجل رغم أنها معطوفة على الرؤوس المجرورة دال على أن عطفها الإعرابي على الوجوه والأيدي المنصوبة مثلها، فتشاركها في الغسل، فإن قال قائل: مادام الأمر كذلك فلماذا لم يضع الأرجل بجانب الوجوه والأيدي لتنسبك المنصوبات معا، ثم يأتي بالرؤوس المجرورة وحدها؟ فالجواب بحسب الشعراوي هو مراعاة الترتيب في أفعال الوضوء، فالنص في تراكيبه وتراتيبه تستنبط منه عدة أحكام منها مسح الرأس كُلًّا أو بَعْضًا، ومنها غسل الرجلين والغاية المحددة في ذلك ومنها الترتيب.

مباحث نحوية وصرفية في تفسير الشعراوي:

تحت هذا العنوان نذكر جملة من المباحث النحوية والصرفية التي استعرضها وعالجها الشيخ الشعراوي من خلال تفسيره لآي الذكر الحكيم، على أن نرتبها هي بدورها تحت عناوين كما يلي:

ـ اسم الإشارة:

ومثال ذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾[16]، يقول: "... إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله: "تلك الرسل" و "الرسل" هي جمع لمفرد هو "رسول"، والرسول هو المكلف بالرسالة، والرسالة هي الجملة من الكلام التي تحمل معنى إلى هدف، وما دام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق "هؤلاء الرسل" وقال "تلك الرسل"؟

ذلك ليدلك القرآن الكريم على أن الرسل مهما اختلفوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمنهج واحد، وكما عرفنا من قبل أن الإشارة بـ "تلك" هي إشارة لأمر بعيد، فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول: "ذا" وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول: "ذاك" وعندما نشير إلى مؤنث فنقول: "ت" وعندما نشير إلى خطاب مؤنث: "تيك" و"اللام" كما عرفنا هنا للبعد أو للمنزلة العالية. إذا، فقوله الحق: "تلك الرسل" هو إشارة إلى الرسل الذين يعلمهم سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم-، أو الرسل الذين تقدموا في السياق القرآني، والسياق القرآني الذي تقدم تحدث عن موسى -عليه السلام-، وعن عيسى -عليه السلام-، وتكلم السياق عن أولي العزم من الرسل"[17].

أي أن الرسل جمع مذكر فالأصل الإشارة إليهم بهؤلاء لكن جاءت الإشارة إليهم بتلك الدالة على المفرد، للتنبيه على وحدة الرسل في دعوتهم وفي مرسلهم، وأما اختيار المفرد المؤنث "تلك" على المفرد المذكر "ذاك" رغم أن الرسل جمع لمذكر، فلأن الرسل مؤول بمعنى "الجماعة" وهي مؤنثة.

ـ صيغة المبالغة:

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿**وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾[18]، وكأن القميص كان معهم، ووضعوا عليه دما مكذوبا، لأن الدم لا يكذب، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعه على القميص، وشاء الحق سبحانه هنا أن يعطي الوصف المصدري للمبالغة، وكأن الدم نفسه هو الذي كذب، مثلما تقول: "فلان عادل"، ويمكنك أن تصف إنسانا بقولك "فلان عدل" أي: كأن العدل تجسَّد فيه، أو قد تقول "فلان ذو شر"، فيرد عليك آخر "بل هو الشر بعينه"، وهذه مبالغة في الحديث"[19]. فهنا الدم موصوف والأصل أن الصفة تكون اسم فاعل أو مفعول أو صفة مشبهة أو ما إلى ذلك ولكن جاء الوصف هنا مصدرا، والعادة ألا يوصف بالمصدر، والسر في ذلك إرادة المبالغة.

ـ النكرة والمعرفة:

ومثاله في قوله تعالى: ﴿**رَبِّ اجعَلْ هَذا بَلَدًا آمِناً**﴾[20]، وتكررت في آية أخرى: ﴿**اجعل هذا البلد ءامنا**﴾[21]، فمرة جاءت نكرة ومرة جاء بها معرفة، إن إبراهيم حين قال: ﴿**رب اجعل هذا بلدا آمنا**﴾طلب من الله شيئين: أن يجعل هذا المكان بلدا، وأن يجعله آمنا "[22].

ثم يتساءل الشعراوي: "ما معنى أن يجعله بلدا؟... كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة، والبلد هو البقعة تنشأ في الجلد فتميزه عن باقي الجلد، كأن تكون هناك بقعة بيضاء في الوجه أو الذراعين، فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببياض اللون والمكان، إذا لم يكن فيه مباني جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به"[23].

فالتنكير هنا أفاد دعوتين هما جعل مكة بلدا وجعله آمنا، وهكذا تفيد النكرة معاني أخرى من مثل ما جاء في قوله: "﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ منَ الله لِنتَ لَهُمْ**﴾ أي بأي رحمة أودعت فيك، ساعة تقول: بأي رحمة فأنت تبهم الأمر، وعندما تُبْهم الشيء فكأنه شيء عظيم، لأن الشيء يُبْهَم إما لأنه صغير جدا، وإما لأنه كبير جدا، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكي، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك، ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر، والشيء الدقيق جدا لا نراه، ولذلك يقولون: هذا الشيء نكرة، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير، ومرة يدل على التكثير، ومرة يدل على التقليل، فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كثير، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه

لِلُطْفِهِ ودِقَّتِهِ، وأنه ليس في متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا"[24]، ثم يواصل الشعراوي وقوفه على التنكير والتعريف فيفرق بين تعريف السلام وتنكيره قائلا: "و يقول سبحانه أيضا: ﴿**تَحِيَّتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ**﴾، لم يأت سبحانه هنا بـ "ال" التعريفية، لأنها لو جاءت كذلك لانحصر السلام في لون واحد، فأنت حين تقول: لَقِيتُ الرجل، فأنت تحدد الرجل، لكنك إن قلت: لقيت رجلا، فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما، فإن جاء الاسم نكرة صار شائعا، أما إن كان بالتعريف فيكون محددا، والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال: ﴿**وسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْم يَمُوتُ ويَوْم يُبْعَثُ حَيًّا**﴾، لأنه يريد أن يكثر السلام، وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال: ﴿**و السلام عَلَيَّ يَوْم وُلِدْتّ و يَوْمَ أَمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾، وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك: « سلام عليكم"، وأنت ترد: « وعليكم السلام » لماذا؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام مني يكون عليك وعلى غيرك، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعني أنك خَصَصْته بهذا السلام"[25]، ومعنى هذا أن السلام من الله سبحانه وتعالى على نبيه يحيى عليه الصلاة والسلام جاء نكرة للتكثير، وأما سلام نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام على نفسه فجاء معرفة للتخصيص، فهناك فرق بين سلامك على نفسك والمقصود منه، وبين سلام غيرك عليك والمقصود منه أيضا.

- **النداء:** ومثال ذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِين يُسَارِعُون فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِين قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ولَم تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾[26]، يقول: "نأتي في النداء بحرف الإقبال وهو "يا" وندخله على "المنادى" أي أنك تطلب إقباله، فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر؟

مثال ذلك قول الحق: ﴿**قُل تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾[27]، إذن النّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم وحين ينادي الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رسله، ونجد أنه نادى كل الرسل بمُشخَّصاتِهم العَلَمِيَّة (يا آدم) والمشَخَّص العلمي هو الاسم، وهو لا يعطي وصفا إلا تشخيص الذات بدون صفاتها، وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام: ﴿**يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ**﴾[28]، وكذلك نادى الحق نوحا: ﴿**يا نوح اهبط بِسَلاَمٍ**﴾[29]، وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام: ﴿**يا موسى إني أَنَا الله**﴾[30]، وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿**يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ**﴾[31]، كل الرسل ناداهم الحق بالمشَخّص العلَمي الذي لا يعطي إلا التشخيص، ولكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاتم الرسل ما ناداه الله باسمه أبدا، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مشخّصات الذات فيقول: "يا أيها الرسول"، ويقول: "يا أيها النبي"، حقًّا إنّ الجميع رُسُل، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم –هو الرسول الذي جاء ناسخا ومؤمنا بالكُلّ، هو الذي يستحق النداء بالوصف

الزائد عن مُشَخصات الذات: "يا أيها الرسول"، وهو الرسول الذي تقوم عليه الساعة، ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما: "يا أيها الرسول" أو: "يا أيها النبي"، وهذا نوع من التكريم "[32]، فهذه إشارة لطيفة من الشيخ الشعراوي إلى وظيفة النداء وعلى خصوصية المصطفى صلى الله عليه وسلم في نداءات الرحمن إياه وما تحمله من دلالات التكريم والتخصيص.

- **العطف**

ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿**ولاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾[33]، "وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ"الفسق" وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[34]، إذن فـ"فسقا" معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو "فسقا"، والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس، وعطف عليها ما ذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق"[35].

ـ معاني الصيغ الصرفية: تحدث الشيخ الشعراوي عن الصيغ الصرفية ودلالاتها في سياق حديثه عن أوزان المفردات القرآنية، ومثال ذلك وزن "تَفْعُلَة" في تفسير قوله تعالى: ﴿**وأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين**﴾[36]يقول: "وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال، ومعناها: أعدوا أنفسكم للقتال في سبيل الله، وقوله الحق: ﴿**وَلا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة**﴾ تقتضي منا أن نعرف أن كلمة "تهلكة" على وزن "تَفْعُلة" ولا نظير لها في اللغة العربية إلا هذا اللفظ، لا يوجد على وزن تَفْعُلة في اللغة العربية سوى كلمة "تَهْلُكة"، والتهلكة هي الهلاك، والهلاك هو خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدْرى أين يذهب، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه، والحق يقول: ﴿**ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**﴾[37]فالهلاك ضد الحياة"[38]، وكما تكلم عن صيغة تفعلة ووجودها في كلمة واحدة فقط هي التهلكة، ويسترسل في ذلك فيقف على صيغة فعللة ودلالتها في قوله تعالى: ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ والْغَاوُونَ**﴾[39]، "الفعل كَبْكب يعني: كُبُّوا مرة بعد أخرى على وجوههم، فهي تعني تكرار الكَبِّ، فكلما قام كُب على وجهه مرة أخرى، وهي على وزن "فعللة" الدال على التكرار كما تقول: زقزقة العصافير، ونقنقة الضفادع، والمراد هنا الأصنام تكبّ على وجوهها، وتسبق من عبدها إلى النار، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ ومَا تَعْبُدُون مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾[40]، فكبكب دالة بصيغتها فعلل على تكرر حدوث الكب مرة بعد مرة.

مستويات التحليل اللغوي في تفسير الشعراوي:

بعد أن وقفنا على جانب مهم من تصرفات الشيخ الشعراوي اللغوية والتي تؤسس لهذا البعد من تفسيره، يحسن بنا أن نقف وقفة منهجية أكثر نلاحظ من خلالها اشتغال الشيخ الشعراوي في تحليلاته اللغوية على المستويات اللغوية التي يشي التحليل المستغرق لها بكثير من الوعي المنهجي والنظرة الكلية والشمولية، بعيدا عن الاجتزائية التي تطبع الكثير من الدراسات والتفاسير.

إن مستويات التحليل اللغوي تأخذ في الظاهرة اللغوية نسقا تصاعديا يبتدئ من الأدنى إلى الأعلى، وذلك بتحليل اللغة إلى أجزائها التي ليس تحتها أجزاء، فنحصل على المكون الأول وهو الصوت أو الحرف، ثم من تركيب صوت بصوت نحصل على الكلمة أو المفردة، ثم من تركيب مفردة مع مفردة على أساس نسق ما نحصل على جملة أو تركيب مفيد، في كل مستوى من هذه المستويات هناك جانب يتعلق أكثر باللفظ وآخر يتعلق أكثر بالدلالة.

وعليه سنستعرض من تفسير الشعراوي نماذج لكل مستوى من المستويات ولكل جانب من الجوانب من الأدنى إلى الأعلى بداية بمستوى الصوت ثم مستوى المفردة ثم مستوى التركيب، حتى نصل إلى نتيجة مفادها أن التأسيس اللغوي لهذا التفسير كان متينا للغاية ذا بعد منهجي ونظرة كلية. لكن قبل ذلك لابد من إيضاح النظرة حول المقصود بمستويات التحليل اللغوي في الدراسات اللسانية، فقد نجد لكل باحث طريقة في استعراضها، حيث يرى ماريو باي أن دراسة اللغة على ما جرى عليه العرف سواء كان المنهج وصفيا أو تاريخيا، تتدرج في أربعة مستويات، يقر هو بنفسه أن الحدود بينها غير واضحة تماما، وتلك المستويات هي:

مستوى الأصوات، ومستوى الصرف، ومستوى النحو، ومستوى المفردات، ثم يقر مرة أخرى بأن الحدود بين هذه المستويات غير واضحة، بل هي متشابكة فالصوت أو الصرف قد يكون له دخل في النحو، وهكذا[41]. والملاحظ أن تقسيم ماريو باي فيه مستويان يمكن إدراجهما تحت مستوى واحد، وهما المستوى الصرفي ومستوى المفردات، فندخل الأول ضمن الثاني، لأن الصرف يتعلق بالمفردة ووزنها وصيغتها، فنأخذ تحت المستوى المفرداتي كلا من المعجم والدلالة والاشتقاق والصرف، وأما تحت النحو فنأخذ التراكيب وإعرابها ودلالاتها، وتحت الصوت نأخذ الحروف وحركاتها ودلالاتها.

1 ـ المستوى الصوتي: في هذا المستوى تدرس الحروف والأصوات وما لها من صفات ووظائف ودلالات، ومثال ذلك في تفسير الشعراوي قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**المعَذِّرون**﴾، وهنا كمُعْذِرون ومعتذرون، والمعذِّرون هم المعتذرون، فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء، لكن إذا وُضِعَت الفتحة فوق العين فالحرف الذي بعدها يُسَكَّن، وعندما يُسَكَّن ما بعد

العين، فهذا يعني أن هناك افتعالا، إذن: فالمعَذِّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقي"[42]، فتكلم هنا عن دلالة الفتحة في بناء صياغة أخرى ما غيَّر في الدلالة.

وتناول أيضا الحروف المقطعة أوائل السور ووقف على دلالات كيفية النطق بها فقال في تفسير قول الحق سبحانه: "﴿**المص**﴾ وفي هذه الآية فصل بين كل حرف، فنقرأها: "ألف" ثم نسكت لنقرأ "لام" ثم نسكت لنقرأ "ميم" ثم نسكت لنقرأ "صاد" وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة، لأن هذه حروف مقطعة، مثل "الم، حم، طه، يس، ص، ق" وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خُيِّل لك أنها كلمة واحدة، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن أَلِفٌ حرف، ولامٌ حرف، ومِيمٌ حرف"، والرسول –صلى الله عليه وسلم –أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها، فهمها من فهمها، وتعبد بها من تعبد بها، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف، فلو أن قارئا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة، وحين نقرأ بعضا من فواتح السور، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق: ألم ، ونقرأ هنا في أول سورة الأعراف: ﴿**المص**﴾ وهي حروف مقطعة نطقت بالإسكان، وبالفصل بين كل حرف وحرف، ويلاحظ فيها أيضا أنها لم تقرأ مسميات، وإنما قُرِئَتْ أسماء، ما معنى مسميات؟ وما معن بأسماء؟ أنت حين تقول: كتب، لا تقول "كاف"، "تاء"، "باء"، بل تنطق مسمى الكاف "كَ"، واسمها كاف مفتوحة، أما مسماها فهو "كَ"[43]. فهذا التنبيه من الشعراوي يفيد في مسألة الحروف المقطعة والمقصود بها، وهي مسألة شغلت المفسرين لزمن طويل، وبقيت سرا مكتوما، فالشعراوي أراد أن يصل من هذا المدخل الصوتي إلى أنها كلمات لها معانٍ مستقلة.

ويستمر الشعراوي في هذا المستوى من التحليل مشيرا إلى قضية مهمة تتعلق بحركات أواخر السور وأنها دائما متحركة ليتم وصل آخر السورة بأول السورة التي بعدها، فيقول: "وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون، بل تلتفت لتجد الكلمة التي في ختام أي سورة مشكلة بغير السكون، والمثال هو: ﴿**وهُوَ رَبّ ِالعرش العظيم**﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون، لتقرأ موصولة بما بعدها، فتقرأ كالآتي: ﴿**وهُوَ رَبّ ِالعرش العظيم بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ** ﴾، وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها، وإياك أن تجعل القرآن { عِضِينَ } فلا تأخذ بعضا من آياته مفصولا عن غيرها، بل القرآن كله موصول، فليس في القرآن من وقف واجب، بل الآيات

كلها مبنية على الوصل، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهي بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿**بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ**﴾ فنحن لا نسكِّن الحرف الأخير في أي سورة، لأنها موصولة بما بعدها، وحتى في الحكم التجويدي إن وجد قلب لننطقه قلبا، وإن وجد إظهار ننطقه إظهارا، لأن آيات القرآن مبنية على الوصل"[44].

وهذا النص في الحقيقة دال على وعي كبير بتداخل مستويات التحليل اللغوي، فهو يشير بأدنى المستويات وهو الصوت إلى وظيفة عليا وهي بناء نصية القرآن الكريم، فهو كتاب غير مبعض ولا مجزأ وإن بدا كذلك، والدليل هو تحريك أواخر السور للإشعار بالتواصل، ويستعين الشعراوي في ذلك بأحكام التجويد وهي مباحث فيها الكثير من القضايا الصوتية، ليقرر أنه لا يوجد وقف واجب، مخالفا ما هو معروف عند علماء التجويد، ومقصوده أن المعاني في القرآن متصلة لا تنقطع حتى ولو ختمت السورة، فلا يجب على القارئ الوقف على أساس اكتمال المعنى، بل له الاستمرار ما استطاع ذلك، بحيث يقيم أحكام التجويد بين السورتين إقلابا وإدغاما وما إلى ذلك، وهذا مبحث صوتي آخر استعان به الشيخ الشعراوي لتقرير ما كان يريد الوصول إليه.

ومثال آخر عن وظائف العمليات الصوتية كالإدغام يأتي في قوله: "﴿**لا يَهِدِّي**﴾ تقرأ هكذا، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْسٍ لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية، فنحن نعرف أن ﴿**يَهِدِّي**﴾ يعني: يهتدي، أصلها يهتدي، ويهتدي فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء، وفيها تقارب لمخارج الحروف، وهذا التقارب يجعل المعنى قائما، والنطق ثقيلاً، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام، وتخلُّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى، لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء، لتكون خالدة اللفظ والمعنى"[45]. والواقع أن نماذج التحليلات الصوتية تتكاثر في تفسير الشيخ الشعراوي، وما سقناه من الأمثلة يوضح المنهجية التي كان يتعامل بها مع هذا المستوى اللغوي وظيفة ودلالة من جهة، ويحيل على غيره من النماذج الأخرى في هذا التفسير، بحيث لو أرادها القارئ فإنه سيجدها في متناوله.

2 ـ **المستوى المفرداتي والصرفي:** تحت هذا المستوى التحليلي تتم دراسة الكلمات المفردة من عدة جوانب:

فتدرس من جانب معناها ودلالتها في علم الدلالة وفي المعاجم.

وتدرس من جانب أصولها واشتقاقاتها في علم الاشتقاق.

وتدرس من جانب صيغها وأوزانها في علم الصرف.

وحيث إننا قد وقفنا سابقا على العديد من النماذج التحليلية من تفسير الشعراوي للمفردات في جوانبها الدلالية والاشتقاقية، فإننا نتجاوز الكلام عنهما ههنا، اجتزاءً منا بما

سبق، ونصرف همتنا إلى التمثيل بالتحليلات الصرفية التي لم تأخذ منا مساحتها الكافية فيما عقدناه سابقا من عناوين. فعلى سبيل المثال لما تحدث الشيخ الشعراوي عن معنى الهجرة التفت إلى دلالة الفعل "هاجر" الذي وزنه "فاعل" الدال على المشاركة والمقابلة، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة، بل اضطر للهجرة منها، أي أنه هُجِرَ دينه فهاجر، يقول الشيخ: " فالنبي –صلى الله عليه وسلم –لم يهجر مكة، ولكنه هاجر منها، ويقول –صلى الله عليه وسلم-: "و الله إنك لا حب أرض الله إليّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولو لا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"، فالهجرة جاءت، لأن أهل مكة هجروه أولا، فاضطر أن يهاجر، و"هاجر" على وزن "فاعل"، والمتنبي يقول:

إذا تَرَحَّلْتَ عن قوم وقد قدروا.... ألا تفارقهم فالراحلون همُ

ولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة، لقد كرهوا دعوته، واستجاب الرسول للكراهية فهاجر"[46]. وفي مثال آخر يقول: " ومفاتح هي إما جمع لِمِفْتَح أو جمع لِمَفْتَح، والمِفْتح » هو آلة الفتح، ومثلها مِبرد، أي: آلة البرد، وآلة الفتح هي المفتاح، ومَفْتح هو الشيء الذي يقع عليه الفتح مثل الخِزانة، ونعلم أن بعض الأسماء تأتي على وزن مِفْعل أو مفعال، فإذا أخذنا "مفاتح" على أساس أنها جمع لِمِفتح، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التي تفتح على الغيب، وإن أخذنا "مفاتح" على أساس أنها جمع مَفْتح، أي: خِزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب، وكلا الأمرين لازمان له، والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح"[47].

أي أن جواز هذين الوجهين صرفا أفاد معنيين متلازمين للمقصود من الآية الكريمة، وهكذا يستثمر الشيخ الشعراوي التحليل الصرفي في تكثير المعنى وتكثيفه، لكنه في بعض الأحيان يرجح قولا على آخر وينتصر لمعنى دون الثاني كما في قوله: "استكانوا، ماذا تعني؟ إنها من سكن، والسكون تقابلها لحركة... وساعة تسمع – الألف والسين والتاء – وتأتي بعدها كلمة، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب، « فاسْتَفْهَم » أي طلب أن يفهم، وهي تأتي لطلب المادة التي بعدها، كأن نقول: استعلم، أي طلب أن يعلم، أو نقول: استخبر، أي: طلب الخبر، واستكان، يعني طلب له كوْنا أي وجودا، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغا يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود، لأن الوجود مظهره الحركة، والحركة انتهت، هذا هو معنى "استكانوا"، ومادامت مِن الكون يكون وزنها – مثل ما يقول الصرفيون - « استفعل » يعني طلب الكون، وطلب الوجود، وقد يكون وزنها ليس كذلك، إذا كانت من سكن، وهي بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب، لأن السين ستكون أصلية، فوزنها ليس استفعل بل هو افتعل فاستكانوا هل تعني أنهم طلبوا السكون؟ لا، لأنهم كانوا ساكنين، إذن فالأولى أن يكون معناها

أنهم طلبوا مجرد الوجود، هذا ما أميل إليه وأرجحه، وقيل في معناها: فما خضعوا وما ذَلُّوا من الاستكانة: وهي الذلة والخضوع"[48]، ففي هذا النص يتوقف الشعراوي على كلمة "استكانوا" مبينا ما تحتمله من وزن وما تحيل إليه من معنى حسب كل زنة، فهي إن كانت من الكون فوزنها استفعل أي: طلب الكون، أي أن هؤلاء الذين مدحهم الله بالصبر والجهاد لم يذلوا لأعدائهم ولم يستكينوا أي لم يطلبوا منهم إبقاءهم موجودين، وأما إذا كانت من السكون فوزنها افتعل أي ذلَّ وسكن وخضع، أي أنهم لم يذِلُّوا، ويرجح الشعراوي المعنى الأول، فهو أبلغ في تصوير صبرهم وجلدهم، فبالرغم من الأذى والابتلاء لم يتوسلوا إلى الأعداء ليبقوهم أحياءً، كما هو حال الكثيرين ممن لا يصمد عند الامتحان.

3 ـ **المستوى التركيبي:** أما المستوى الثالث فهو المستوى التركيبي الذي يشتغل على نظم الكلام وتأليفه وما ينشأ عن ذلك من أحكام ومعان وأسرار، وقد درسه علماؤنا القدامى في حقول شتى أهمها: علم النحو وعلم المعاني. وقد ذكرنا سابقا الكثير من التحليلات النحوية للشيخ الشعراوي، وكلها في واقع الأمر تصب فيما نسعى إلى تأكيده من كون تفسير الشعراوي تفسيرا مستغرقا لمستويات التحليل اللغوي، ومع هذا فلا نُخْلي المقام من نموذج لتصرفات هذا المفسر الفَذِّ في مستوى التركيب.

يقول في تفسيره: "أننا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى جاء بالصابئين في سورة البقرة متأخرة ومنصوبة، وفي سورة المائدة متقدمة و مرفوعةً، نقول هذا الكلام يدخل في قواعد النحو، الآية تقول: ﴿**إنّ الذين آمَنُوا**﴾، نحن نعرف أنّ "إنَّ" تنصب الاسم وترفع الخبر، فالذين مبني لأنه اسم موصول في محل نصب اسم إن، ﴿**والذين هَادُوا**﴾ معطوف على الذين آمنوا يكون منصوبا أيضا، والنصارى معطوف أيضا على اسم إن، والصابئين معطوف أيضا ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم، نأتي إلى قوله تعالى: ﴿**مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر**﴾، هذه مستقيمة في سورة البقرة إعرابا وترتيبا، والصابئين تأخرت عن النصارى لأنه مفرقة قليلة، لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى، ولكن في آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع في قوله تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُوا**﴾، الذين آمنوا اسم إن والذين هادوا معطوف، "الصابئون" كان القياس إعرابيا أن يقال والصابئين، وبعدها النصارى معطوفة، ولكن كلمة "الصابئون" توسطت بين اليهود والنصارى، وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر، وللعرب أذن مرهفة لغويا، فمتى سمع الصابئين التي جاءت معطوفة على اسم إن تأتي بالرفع يلتفت لفتة قسرية ليعرف السبب... هذا هو اللحن إذا سمعه العربي هز أذنيه، فإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة، فما هي العلة؟ الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم، أما الصابئون فهؤلاء لم

يكونوا تابعين للدين، ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة"[49].

فهذا النص يتوقف فيه الشعراوي عند الآيات المتشابهة ويحاول أن يقدم تفسيرا مقنعا لأسرار التقديم والتأخير، واختلاف الإعراب من منظور لغوي يعتمد على التحليل النحوي والبلاغي لاستخراج النكت اللطيفة وراء كل طريقة في النظم والتأليف، فرفع كلمة الصابئين في آية المائدة مع أن حقها النصب وجهه الشيخ على أساس إرادة الإلفات إلى ما لا يُلْتَفَتُ إليه عادة، فغَيَّرَ من وصف معهود فيه فجلب إليه الأسماع والأنظار، على قاعدة: خالف تعرف، وهذا في واقع الأمر توجيه رائع للآية وتخريج مقنع لوضعها النظمي.

مراجع البحث وإحالاته:

1- كشف الظنون، لحاجي خليفة، ج1 ص 127 وكالة المعارف الجليلة 1934

2- هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، نسبته إلى جرجان مدينة فارسية (- 474 هـ) ينظر الأعلام للزركلي ج4 ص48، وبغية الوعاة للسيوطي ج2 ص106.

3- دلائل الإعجاز، ص: 87 الجرجاني المكتبة العصرية بيروت، ط 2000 م

4- سورة النساء الآية 115.

5- تفسير الشعراوي، ج5 ص2631 دار أخبار اليوم، القاهرة 1991

6- سورة الرعد الآية 24.

7- سورة هود الآية 69.

8- تفسير الشعراوي، ج12 ص 7300.

9- المصدر نفسه، ج5 ص3007.

10- تفسير الشعراوي، ج5 ص3007.

11- تفسير الشعراوي، ج1 ص467.

12- سورة المائدة 06.

13- تفسير الشعراوي، ج5 ص: 2958.

14- المصدر نفسه، ج5 ص: 2960.

15-المصدر نفسه، ج5 ص2955.

16- سورة البقرة الآية 253.

17- تفسير الشعراوي، ج2 ص1070.

18- تفسير الشعراوي، ج5 ص 2551.

19- المصدر نفسه، ج11 ص 6887.

20- سورة البقرة الآية 126.

21- سورة إبراهيم الآية 35.

22- المصدر نفسه، ج1 ص 600.

23- المصدر نفسه، ج1 ص600.

24- تفسير الشعراوي، ج3 ص1836.

25- المصدر نفسه، ج9 ص5499.

26- سورة المائدة الآية 41.

27- سورة الأنعام الآية 151.

28- سورة الصافات الآية 104-105.

29- سورة هود الآية 48.

30- سورة القصص الآية 30.

31- سورة المائدة 116.

32- تفسير الشعراوي، ج5 ص3139.

33- سورة هود الآية 48.

34- سورة الأنعام الآية 145.

35- تفسير الشعراوي، ج7 ص 3911.

36- سورة البقرة الآية 195.

37- سورة الأنفال الآية 42.

38- تفسير الشعراوي، ج2 ص 844.

39- سورة الشعراء الآية 94.

40- سورة الأنبياء الآية 98.

41ينظر: أسس علم اللغة، لماريو باي، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط8، 1998، ص 43.

42- تفسير الشعراوي، ج9 ص5411.

43- المصدر نفسه، ج7 ص4035.

44- تفسير الشعراوي، ج9 ص5634.

45- تفسير الشعراوي، ج10 ص5927.

46- تفسير الشعراوي، ج4 ص2530.

47- تفسير الشعراوي، ج6 ص3669.

48- المصدر نفسه، ج3 ص1807.

♦ التصفية هي تصفية موكب الإيمان من غير أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته.

49- تفسير الشعراوي، ج1 ص372.